الخاتمة

فخامة الرئيس اللواء... «مات فقيراً».
في حضن صمته، مات. وفوق قمّة غنى أمانته لنزاهته.
ألدّ خصومه ومعارضيه بَكَوْه.. ورثَوه قبل مؤيّديه.
هذا معروف.. ومؤكّد، وموثّق، ومثبّت.
قائد أسّس وقاد.. ولم يُقَد أو ينقاد.. إلى «سقطة يندى لها جبين».. ولا إلى إذلال شرف... مثل معظم أولئك الذين أنبتوا واستولِدوا من «إمتحانات قياس الرضوخ».. فحكموا وتحكّموا ولم يُحاكموا مرّة أو يُسألوا عمّا نهبوه وأذلّوه وسيّبوه.
الشهابيّة حكمت ثلاثاً... طيلة «عهود ثلاثة».

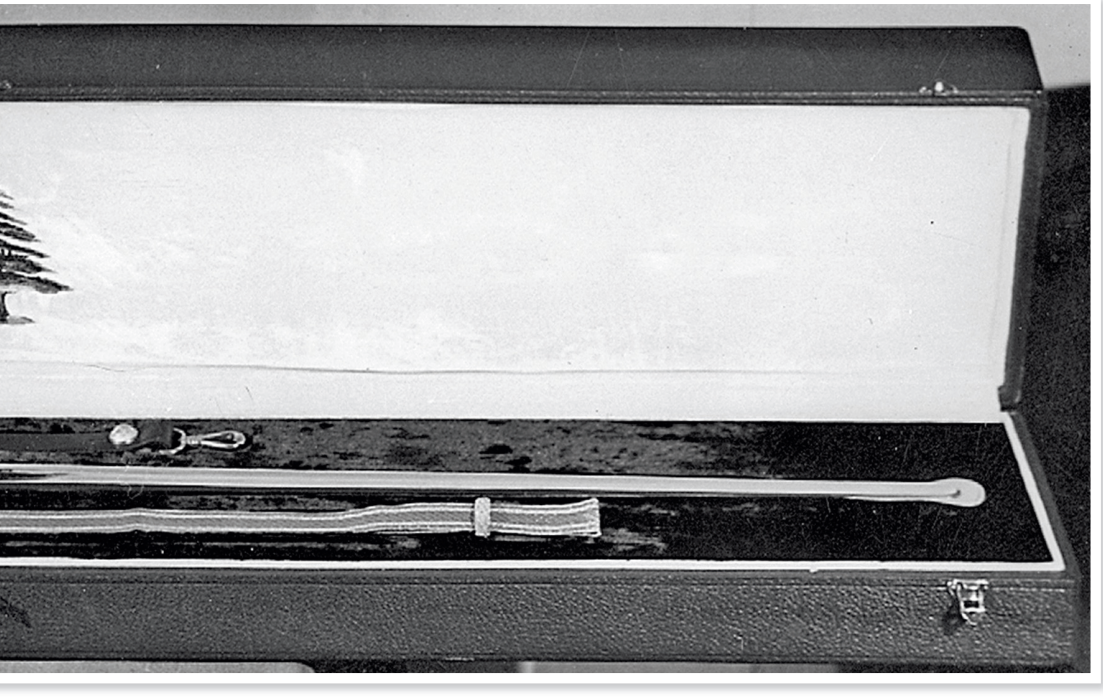

قاطع مثل السيف...

هكذا قالوا..

شهاب، حلو وسركيس.

ثلاثة رؤساء شهابيّون، من أصل أحد عشر رئيساً كانوا الوحيدين الذين شكّلوا العلامة الفارقة لأصول تداول السلطة التي يتباهى بها لبنان.

فسلّموا الأمانة، عندما دقّت الساعة، بكلّ قبول واحترام، وبكلّ سلام... وأنهوا حضورهم فوق كرسي السلطات.. وفي طموحات ما بعدها...إراديّاً، ولم يلتحقوا أو ينضمّوا إلى أحد «نوادي الزعماء». قائد عسكري وقاضٍ وحاكم مصرف لبنان وصاحب فخامة كلمة، شكّلوا أرقى تقاليد تسلُّم وتسليم السلطات في لبنان.

فالكلّ يعرف كيف انتهت كلّ الولايات الرئاسيّة التي سبقت كما التي لحقت، من عهد الرئيس بشارة الخوري وصولاً إلى الرئيس إميل لحود...

ثلاثة رؤساء شهابيّون... ماتوا فقراء..

وحدهم، عاشوا وماتوا فقراء...

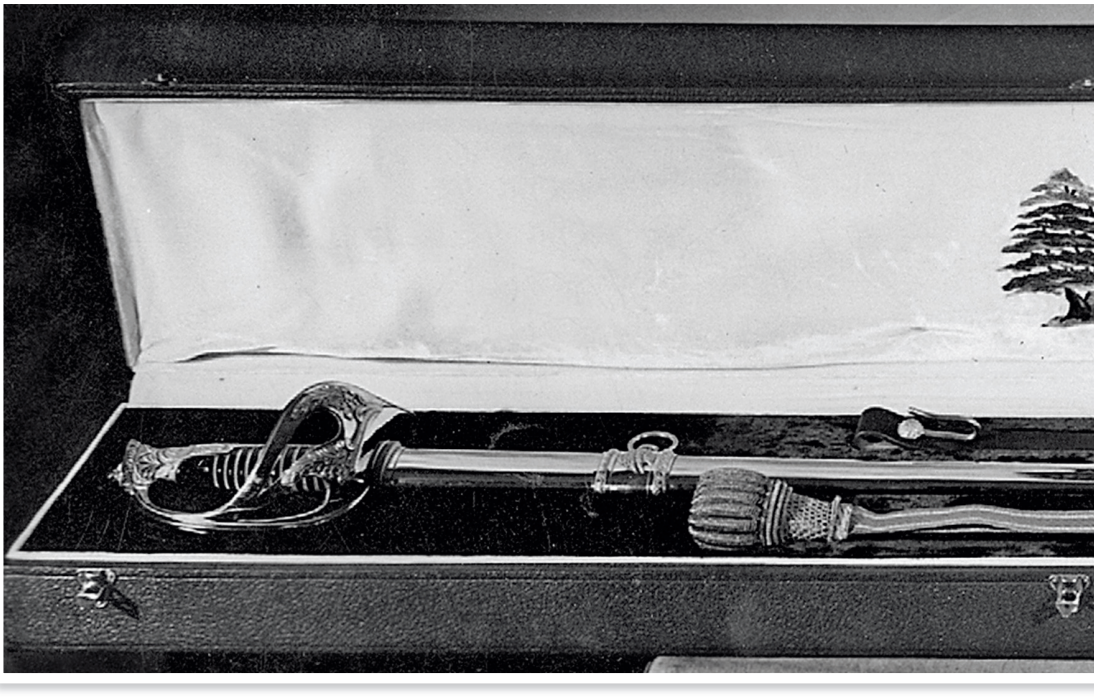

ولم يُرَ أو يُسمَع أو يُقال أنّهم بنوا قصوراً أو أسّسوا شركات أو امتلكوا أسهماً أو تقبّلوا هبات أو إستولوا على عقارات أو تبختروا بسيّارات مصفّحة ومواكبات جرّارة... هكذا لم تستطع ألسنة السوء على كثرتها، إتهام أيّ منهم، بإختلاس أيّ قرش من المال العام...

من بين كلّ رؤساء جمهوريّة لبنان، إثنان فقط إستقالا أثناء فترة ولايتهما الدستوريّة: فؤاد شهاب و«إبنه الروحي» الياس سركيس.

ومن غرابات القدر أن الرؤساء الثلاثة لم يكن لهم وريث... ولا «إبن أو بنت أو صهر رئيس»...

هل صحيح أن الشهابيّة امتدّت إلى فترات عهودٍ ثلاثة؟!

لا نعتقد ذلك. لأن «عصور القهر» التي إنطلقت من إشتداد إعتصار الصراع الإقليمي «للتناقضات» اللبنانيّة، فرضت إتفاق القاهرة على لبنان في عهد الرئيس شارل حلو. ولأن الرئيس الياس سركيس وصل إلى الحكم بعد «تدمير المدرسة الشهابيّة» في عهد الرئيس سليمان فرنجية، وفي ذروة «حرب تدمير لبنان»...

لا... «فالظاهرة» الشهابيّة الأصليّة، بعناوينها الأصلية، وأدائها الأصلي في الحكم، دامت ستّ سنوات فقط. ولم يبقَ بعدها، ومنها، غير «بقيّة شهابيين».

كُتب الكثير عن الرئيس شهاب، باللون الزيتي... والكاكي...

وكان إسمه يُكبّر أو يُصغّر أو يُمحى حسب إزدهار أسهم هذا الإسم أو تراجعها في إحدى «بورصات المريدين والمزايدين».

وكاد يتحوّل في تناولات الإلتهامية السياسيّة الجشعة، هو وكلّ بيته وأوراقه الخاصة إلى «مشروع مطعم».

لأن مطابخ السياسة اللبنانيّة المستحدثة، العاملة، بمعظمها، على إعداد «وصفات أطباق العمالة والعمولات» وإنزالها إلى موائد «خبزنا الأخير»، لم تعُد تعترف بلقمة عرق الجبين... ولا برقّة مَن كان يكتفي بها...

«فالمارد» الذي بقي مارداً لأنه لم ينحنِ لإلتقاط فُتات مصلحة خاصة «أو ثلاثين فضّة» رُميت له من مال فساد ما، كان يجب أن يُلتهم نهائياً... أن يصير مطعماً، لا طعم ولا لون ولا رائحة له.

سخرية؟!

لا... هي الحقيقة المرّة والمؤسفة والتي أُريد «لمدرسة الحداثة الرؤيوية الوطنية» أن

تؤول إليها، وتذوي وتنزوي فيها.

لكن مخزون «إرادة الشهادة للحق» شاء إسترداد «صرْح خلوة الأمير الفقير، الأخير» وتحويله إلى متحف.

لماذا؟ وما الذي سيعرضه هذا الصرح؟..

هل سيكون «مستودعاً إضافياً» لتمثال جديد، «لصنمٍ» جديد، يمجّد شخصاً إضافياً يُضمّ إلى تماثيل شمع الشخصانيات؟

لا... ولا... أيضاً... وأيضاً.

فحقيقة فؤاد شهاب «ومدرسة حداثته الرؤيويّة» كامنتان في سُلّمٍ قِيمِيّ مهدّد بالإنقراض... بإعتراف كلّ «أنقياء الضمائر».

فأين صار قانون: «من أين لك هذا؟»...

وأين هم، أصحاب النزاهة المالية الذين عبروا جنّة الحكم، لا بل جنّاته وجهنّماته وخرجوا منها «بأثواب بيضاء»؟؟ و«أكُفٍّ بيضاء؟؟

مَن حاكَم أمراء الحرب وآمريها، والمتآمرين علينا كلّنا، من إنطلاقتها وحتى لا نهايتها التي تُعلّقنا في حبال مشانقها حتى اليوم؟...

ومَن يسأل عن الإنتهاك المنظّم المستمرّ، ليس لحقيقة حريتنا فقط، وإنما لكامل حقائق «وُجودنا» وكامل حقوقنا في اختيار طريقنا إلى المستقبل وإحتفاظنا بإرث ماضينا المشرق؟!

مَن قبض على «خناق العنف» المتحكّم بنا أو «جرّمه» على الأقل؟

مَن... ومَن... ومَن؟ أسئلة لا تنتهي.. أسئلة وكأنّه من الممنوع عثورها على «أجوبتها»... لأن المجيب المُفترض عليها، هو المسؤول وفي حالات كثيرة، عن سبب تكوُّن أكثر من سؤال!!

فإلى شابات وشُبّان لبنان...

وإلى كتاب تاريخنا المتعثّر المتلعثم، والمتردّد، نكتب:

عن مدرسة مناقبيّة أخلاقيّة، صاحبة طموحات «مثاليّة»، شاءت وتمنّت وعملت على الإنتقال بلبنان إلى حداثة خلّاقة مواكِبة للأزمنة الآتية، فأُوقِعت عن صهوتها وأُسقطت في كمين مدى السياسات المتمادية.. المنصوب لها في تلك الأفعال التي استَدرجت ردّات أفعالها..

- مدرسة حُكم يرأسها حاكم وقور، جِديّ، مسؤول، صامت.
- مدرسة لون سياسي واحد، لا تلوُّن حربائي فيها، ولا حربقات.. أكاذيب وخداع.. ولا

قفزات إرتجاليّة.. ولا نطنطات من ضفة إلى أخرى..

– مدرسة رئاسة، لا «رئاسةٍ سياسيّة بثلاثة رؤوس».

– مدرسة رمزيات سيادية مقدّسة لا تهاوُن مع مَن يمُسّ بها... ولا إجتهادات لعناوينها ومضامينها.. ولا ضرورات فيها تبيح محظورات..

– مدرسة وطنيّة صافية، لا إشراك فيها.. ولا شريك لها!!

– مدرسة إستقرار ثابت ببراعة فوق خطّ زلازل جيوستراتيجية، تاريخي.. ومدرسة الحياد الإيجابي البنّاء...

– مدرسة إسترداد المسيحيين إلى عروبتهم الخالصة التي أنجبها فكرهم السياسي من صلب دورهم الريادي..

– مدرسة أناقة التعامل.. والتصرّف.. والكلام..

– مدرسة البحث عن «نُخب الإستحقاق والجدارة» والشخصيات القياديّة، العصاميّة الطموحة... وتوظيفها لمصلحة الوطن.

– مدرسة التخطيط المرتكز على الحقائق السوسيولوجيّة والإنتروبولوجيّة لجغرافيا «التنوّع اللبناني».. وعلى دِقَّة ميزان عدلها وعدالتها.

– مدرسة العدالة الإجتماعيّة.. والتنمية المتوازنة. ومدرسة بناء هيكلية وطن حديث، لا سوق عكاظ أشعار وأحاديث.

– مدرسة الدولة الهامّة، الدولة القامة.. والدولة المُهِمَّة Important State.. والدولة المَهَمَّة Mission State.

هذه هي مدرسة تلك الحداثة الرؤيويّة التي حلم بها فؤاد شهاب.. وتبنّى كلّ مناهج «نهجها».

كان هذا ما أراده.. وما استطاع أن يجسّده بشخصه وشخصيّته.. ولو أنه لم يتمكّن من تعميم «الوفاء له» على كلّ شهابييه وكلّ مَن قفز إلى مغناطيسيّة مسار شهابه»..

«الجنرال الديموقراطي» كان عسكري الإلتزام «بديموقراطيّة الكتاب».

«البلاد ليست مهيّأة بعد ولا معدَّة لتقبُّل تحوُّلات لا يمكنني تصوُّر إعتمادها إلاّ في إطار إحترام الشرعيّة الدستوريّة والحريّات الأساسيّة التي طالما تمسّكت بها»..!!

قالها.. وسجد للكتاب.. ورحل.

«جنرال القرن الماضي»، جنرال هيبة الحكم، تهيّب الديموقراطيّة، ولم يُعسكر السلطة، ولا الحريّة.. ولا الثقافة ولا الفنون.. ولا الرأي.. ولا المُعتقد.. جنرالات

آخرون قاموا بذلك.. أو حاولوا.. فسبحوا في بحر دماء كثيرة.. أثناء تسبيح شعوبهم وجماهيرهم.. «لقياداتهم الخالدة».

و«جنرالات» من لبنان، ومن المنطقة، ومن أمريكا فييتنام، والحادي عشر من أيلول، وفرنسا الجزائر، بعيداً عن رؤية ورؤيا الجنرال ديغول.. إرتكبوا وركّبوا العديد من التعديات والمؤامرات.. من دون أن تتعرّض نياشينهم وأوسمتهم، إلاّ في حالات نادرة، لأيّة إهانة أو محاسبة جديّة، وصادقة. وإذا كان من كلمة حقّ أخيرة تُقال لَتوجّب الإقرار بأن مثاليّات «المدرسة الشهابيّة» سبقت عصرها كثيراً، أو أنها جاءت متأخرةً!! فلم تستطع شيئاً إزاء رسوخ خراب بصرة العقليّة السياسيّة الطوائفيّة اللبنانيّة. العقليّة الطائفة الهائمة، في متاهات البيع والشراء. فهذه المثاليات التي كانت «رؤى مناقبية ومسلكيّة» القائد فؤاد شهاب لم تُقرأ وفق قواعد أبجديّتها، لا من كلّ محيطه ولا من كلّ أولئك السابحين في محيطات «الوراثة المستحقّة»، وفي «مستنقعات الزواريب السياسيّة الضيّقة»..

وهنا نتساءل:

«كيف إستطاع الدهاء السياسي اللبناني إبقاء ذاك الزاهد بكلّ سلطة، في دائرة الشكّ بوفائه الإستثنائي لقدس أقداس الديموقراطيّة: الحريّة؟!».

كلّ ذلك في بلدٍ لا يتوقّف فيه بحران عن المدّ والجزر، أبداً. بحر الطبيعةِ وبحر الألسنة والتأويلات والمسموعات والتوقّعات.

إثنان كَوَّنا صفعة فؤاد شهاب المهذّبة لوجه الزّمن: صمته والآخ: حكمته المقتضبة. يكفيه... يكفيه هذا التفرُّد في التمنُّع عن المشاركة في «فبركة» الإنفعال. يكفيه أنه لم يجرِّح ولم يتطاول... يكفيه أنه شبع. إنه استطاع أن يتوقَّف، وأن ينسحب وأن يعتذر عن تلبية «النداء». منجزاته؟ لحظات نجاحه؟ كلّها طُويت ودخلت متحف الذاكرة لتصبح ملك «الوطن». حتى هو، لم يعُد حرّاً في قبره. صار أسير إستحالة النُّطق وإستحالة التصحيح والتصويب والتكذيب، صار سطراً، أسطراً عدّة في كتاب حاول أن ينقّب في بقايا «حجمه»، عن بعض الحقيقة وبعض أسباب إختلاق إخفاقه.

أن تضمحلّ قيمة الشخص فيه: هوذا أحد أهدافه. لهذا تجاهل أهميّة «مذكّراته» ومعلوماته واكتشافاته الشخصيّة. فمضى قبل أن يتحقّق له، ربما، سحب صورته حتى، من التّداوُل. سلبيّة؟ يأس؟ شلل في الطموح؟ أكيد أن لا... إنّها ضريبة المعرفة... تلك التي تُمكِّن المرء من إستباق النتائج.

لو قُدِّر لنا أن نتخيَّل محاكمة وهميَّة، يتمّ فيها «حشر» كامل الشعب اللبناني داخل قفص إتِّهامٍ هائل. يكون بحجم الخطأ الذي إرتكبه هذا الشعب في فهمه للشهابيّة، لو

قُدِّر لنا فتح الملفّات المرشدة إلى الأبواب السريّة وكهوف الضمير، لوجدنا «فؤادان» شهاب في قاعة المحكمة. فؤاد شهاب وكيل الدفاع وفؤاد شهاب القاضي، ولوجدنا أنّ كليهما صامت واجم. الصمت – الإدانة الذي أطفأ فؤاد شهاب، لا توازي إقتضابه إلّا كلمتا: «أنا إنسان» اللتان إفتتح بهما الشيخ بشارة الخوري مؤتمر الأونيسكو المنعقد في بيروت، أيّام عهده.

«أنا إنسان»، فهل فهم شعبك، هل فهم ماذا فعل بك؟ هل فهم أنّ من شوّهوا عهدَك واستغلّوا هالتك، أنّ هؤلاء، لم تستقدمهم من المرّيخ أو الزّهرة، وأنهم، ذاتهم، يصفّقون اليوم في مواكب غيرك ويمتصّون من هالته، القوّة والمنافع؟...

... ولكي لا نسترسل، نسكت ونعتذر، نلتمس الصّفح من فؤاد شهاب وحده... نرجو ألّا يعتبرنا من المتطاولين على بيت قربانه: صمته.

نرجو أن يسمح لنا بتساؤل أخير يقول:

تُرى، لو حكى فؤاد شهاب؟..

لو كتب بعض ما بقي يتكتّم عليه حتى نهاية عمره. فما الذي كان بوسع غيره... وعنه... أن يقول؟؟..

مشوار جينا عالدّني... مشوار